

تونس بين جبهتين

أسامة رمضان
رئيس تحرير العرب ويكلي

واستشراف توجهاته. عندما تكون رادارات الدولة والطبقة السياسية في أحسن أحوالها يمكن تجنب المفاجآت قبل أن تحدث بتغيير مسار السفينة أو باتخاذ الإجراءات الاحترازية الكفيلة بمحاذاتها.

هشاشة الوضع الاجتماعي تتضمن أيضا تنبئها للسلطة بصعوبة التحدي الذي سوف تواجهه في تطبيق الإجراءات التقشفية التي تخطط لها سواء في إطار الاتفاق مع صندوق النقد الدولي أو خارجه.

من المحتمل أن تشمل هذه الإجراءات تقليص الدعم الحكومي لأسعار المواد الأساسية والتخفيف من عبء أجور موظفي القطاع العمومي وإصلاح أوضاع المؤسسات الحكومية المنقل كاهلها بالديون.

أمام هذه القائمة تعرف الدولة أو على الأقل الحكومة القائمة أنها سوف تتحمل هي، وليس المؤسسات المالية المقرضة، تبعات أي قرارات متسارعة أو شديدة الوقوع في مجتمع تبلغ نسبة الفقر فيه أكثر من 20 في المئة وهي مرشحة للزيادة في أجواء كورونا.

وحتى النقابات العمالية نفسها تعرف مسبقا أن قدرتها على تمرير الإجراءات التقشفية وتبريرها وخاصة الرفع في أسعار المواد الغذائية أو الاستغناء عن الموظفين ستكون محدودة جدا.

وقد صرح أحد متحدثيها مؤخرا بأنه يجب حماية الطبقة الوسطى إضافة إلى الفئات الفقيرة كما أن الحديث عن تضخم أعداد الموظفين الحكوميين يمثل مغالطة اعتبارا لأن البلاد ما زالت تحتاج حسب قوله، لتشغيل الآلاف إضافية من الموظفين في قطاعي الصحة والتعليم على وجه الخصوص.

في هذه الأجواء تبدو هشاشة أو صلابة الجبهة الداخلية إلى حد كبير رهينة المواقف على الجبهة الخارجية. كل الاعتبارات الموضوعية تجعل النخب الحاكمة مهتمة بمواقف شركائها وأصدقائها الغربيين بالذات. هناك الولايات المتحدة وإلحاحها على الإسراع في نسق تنفيذ الإصلاحات الاقتصادية.

وكان ذلك إحدى الرسائل التي قرأها العموم من المكالمة الهاتفية التي أجرتها مؤخرا نائبة الرئيس الأميركي كمالا هاريس مع الرئيس التونسي قيس سعيد. الرسالة الثانية كانت بضرورة حماية المؤسسات الديمقراطية من النزاعات الداخلية. هذه الرسالة بالذات أوضحها بشكل أكبر السفير الأميركي في تونس.

أكد السفير دونالد بلوم في تصريح لـ "البرز" أن تونس في حاجة إلى "تفاهم" بين الفاعلين السياسيين من شأنه أن "يقدم إشارة قوية على مصداقيتها للولايات المتحدة والدائنين". وتبقى البلاد في انتظار مبادرات خارجية ربما مشابهة للقرار الأميركي الذي أعلنه وزير المالية التونسي والمتعلق بمنح تونس هبة بقيمة 500 مليون دولار.

ومن الأكد أن قيس سعيد في حضوره للقمّة الأفريقية - الفرنسية بباريس كان في إنصات شديد لمواقف شركاء تونس وأصدقائها من أجل سبر مدى استعدادهم للمساعدة.

مثل هذه المبادرات وأي مواقف إضافية ملموسة من المؤسسات المالية الدولية قد لا تخفف من التخوفات بشأن وطأة المجازفة بتطبيق خطة الإصلاحات ولكنها ستساعد على ذلك.

يجتاز البدء في الإصلاحات الصعبة إلى جبهة داخلية صلبة تسندها جبهة خارجية فاعلة. ودون الوثوق من الجبهتين الداخلية والخارجية ستكون عملية الإصلاح بكل تأكيد مجازفة غير محسوبة لا تجد من يشجع عليها.

على الرغم من ذلك، لم يجد المسكون بمقاييد الأمور في إسرائيل، لأنفسهم، بل إذا غير هذا الوسط الظلامي الذي يحتقر السياسة، بينما هؤلاء هم الصاعدون إلى منصتها. ولعل السبب في هذا التناقض، هو كونهم ركبوا موجة التطرف، كجرائم حرب، أو "نبياء" الليكود، الذين رفعوا على مر العقود، راية فيها خارطة فلسطين وشرق الأردن، تنوسطها بنقديّة، مرفقة بشعار من كلمتين، بالعبرية "كك كاك" ومعناها بالعربية "هكذا فقط".

إن "هكذا فقط" تعني شطب السياسة والحرب المفتوحة. ولأن إسرائيل ليس فيها زعماء، ليست شريحة المتصدين للسياسة فيها، إلا محض جنرالات حروب وخريجي تلك المدرسة الليكودية، فإن هؤلاء يلعون في مربع التنافسات الحزبية، ويجدون اختراع أسمائها



يد إسرائيل الطولى ...

بغير السياسة المعركة تنتهي
والحرب تستمر

مصارفها. وعندما اندلعت الهبة الشعبية في حي الشيخ جراح وجرى قمع السكان بوحشية، ثم جرى اجتياح المسجد الأقصى، وصل الشبان الفلسطينيون هناك إلى القنعة بتوجيه النداءات لحماس لكي تتدخل. فالكائن الأسطوري الثوراتي، المدعو "شمشون" مدفون في غزة، كما يقال في ذات الأسطورة. لكن حماس التي تحكم غزة، وجدت من مصلحتها أن تتشبه بفاعله دون أن تنتحل اسمه. ثم إن فلسفة ذلك الكائن الأسطوري، كانت في معركة الأخيرة، تقوم على فكرة "علي وعلى أعدائي".

لبت حماس النداء، واطلقت بعض ما لديها من الحمم، في نسق من الأداء، مُحكم ومن شأنه الحفاظ على قدرتها على الاستمرار، ودارت الحرب التي كتب عنها المعلق الإسرائيلي جردون ليفي، نائب رئيس تحرير صحيفة "هارتس" ساخرًا من الجيش الممجج بالسلاح، ومن الولايات المتحدة التي حرصت على تسمينه كالإوزة "لو كانت إسرائيل أقل قوة وتسليحا بقليل لكانت حذرة أكثر في أفعالها. زيادة القوة هذه تولد سلوكا وقحا واستوقا وببربريا. والقوة ليست هي القوة العسكرية فقط، بل السياسية.

العالم يسبح لإسرائيل بأن تفعل ما هو مسموح فله لعدد قليل جدا من الدول. إنها قوة مُفسدة، تعمل على إفساد إسرائيل. لا أحد سيوقفها، ولا أحد سيعاقبها على أفعالها. إذن، لمّ لا هي تستطع".

ويستطرد جردون ليفي "إن من يفعل ذلك مع إسرائيل كمن يقوم بتسمين الإوز. عندما يقول الرئيس الأميركي باين إن إسرائيل حقا في الدفاع عن نفسها، دون أن يقيد ذلك بشيء، فإن البطاقة البيضاء المفسدة تعود، ويكون معناها، أقصوا بقدر ما تستطيعون. أيها الأصدقاء الأعزاء، انتم فقط تدافعون عن أنفسكم. وباسم هذا، فإنه مسموح لكم أي شيء. بعد ذلك، يبدو أن الرئيس الأميركي، يوقع أيضا على شيك آخر لتزويد المزيد من السلاح الذي ستستخدمه إسرائيل في الجولة القادمة".

توقف الترشق بالنيران، ويتوقفه، قادة إسرائيل. فشلوا في القضاء على قوة حماس وفشلوا في استعادة جثث جنودهم عندها، وظهرت خشيتهم من دخول أراضي غزة، وفشلوا في الحصول على تأكيد شعبي في الإقليم والعالم، وجلبوا لأنفسهم الإدانة على قتل الأطفال والنساء وسائر الإبرياء، وتعرضوا لضغوط من كل صوب، لوقف حرب الإبادة، بحكم فوارق لا تقبل المقارنة، بين تكنولوجيا التسليح وقدرات السلاح على جانبي المواجهة؛

وإحلال عناصر من بينهم في بيوت ليست لهم. الانسداد السياسي، الذي ثابر عليه المتطرفون، مدركين أن مصير نتانياهو في أيديهم، فإن لم يُطعمهم سيكونون جاهزين لإشهار سيف الدنس في وجهه، باعتباره "خائن الأمانة" وفاقد "الطهرانية"، لذا فإنه استشر خطر على مصيره السياسي، فأنزح عن مسؤوليات الدولة المعنية بحماية مواطنيها والمواطنين في أراضي تحتلها.

حركة حماس من جانبها، وجدت نفسها بعد أن تقلبت السياسة، واستخدمت مفرداتها أمام أفق مسدود في وجه عباس ووجهها، بمعنى القول الشائع "رضينا بالهم ولم يرض بنا". وعندما نأخذ بعين الاعتبار أن حماس عندما تقلبت التسوية تعرض خطابها الذي جاءت بشفاعته للاهتزاز وزادته اهتزازا لقطات محيرة وتحسب عليها، كسماح إسرائيل لمدنوط قطري بحمل حقايب الدولارات لها عبرها وربما عبر

ويغيرون الاصطافات، ولا يكفون عن السجال في ما بينهم. ولأن الخطر على إسرائيل سيكون خطرا عليهم جميعا، فإن عنصر التوافق بينهم هو الحفاظ على قوة الجيش، تجنيدا وتديريا وتسليحا، مع صناعات عسكرية، ومنظومات أمنية، تفتح لهم أسواق السلاح للترويج وتأسيس علاقات. في إسرائيل، لا يلجا الصقور اليمينيون، النازل منهم والطالع في بورصة التنافسات الحزبية إلى ليبرالين أو ديمقراطيين أو يساريين أو حتى أساتذة جامعات يتحلون في أعمالهم البحثية في علوم التاريخ والاجتماع وغيرها، بقدر من الأمانة العلمية. لكن هؤلاء اليمينيون يتدربون على الخطابة التي يلهون بها حماسة المتطرفين، فمن يمتلك منهم ما استطاع من القدرة على دغدغة عواطف المستوطنين، أو غرائزهم، يعلو شأنه بقدر ما امتلك. وينبغي أن نعترف بأن حماس في بداية ظهورها، اتكأت على الخطاب المضاد، بمطلقاته القصوى، لكنها بالتجربة، وبما تراكم لديها من خبرات المواجهة الفعلية في جولات القتال، انزاحت إلى السياسة، حتى تطابق خطابها مع خطاب فتح، إذ إن كلتا الحركتين، التقطتا ما يُسمى "وثيقة الأسرى" واتخذتا منها، نظريا، صيغة توافقية لمشروع الاستقلال الفلسطيني وقيام الدولة. وفي محاذاة ذلك، ظل الطرف الإسرائيلي وحده، هو الراضخ للخطاب الأصولي المتطرف.

فالتطرف الفلسطيني، مجتمعا، ارتضى التسوية التي تؤمن له في الضفة والقدس 21 في المئة من مساحة أرض فلسطين، مع 1.3 في المئة لقطاع غزة. ففي هذه الأراضي، يعيش ما يزيد عن 6 مليون فلسطيني. لكن الطرف الأصولي الإسرائيلي المتطرف، يريد استيطان مساحة الضفة قاطبة، حتى ولو كان ثمن ذلك، استمرار الاحتلال العسكري واستمرار النزاع.

كان نتانياهو وغانتس، ومن بعدهما الطامحون المتريصون لهما ويودون الصعود، مثل جردون ساعر، المنشق عن "الليكود" يمينا، وأصبح له حزب جديد سماه "أمل جديد". فهؤلاء يلعون لعبة القط والفار في ساحة سياسية خلت لهم، ولم يُقصروا جميعا في التشهير ببعضهم البعض!

في مثل هذه الأوضاع، لم يكن نتانياهو في خضم محاولاته الإفلات من الإدانة في قضيتي فساد، قادرا على التصرف كرجل دولة، فيمنع المستوطنين المتطرفين، من اقتلاع سكان حي الشيخ جراح من بيوتهم ورميهم إلى لا مكان،

قادة إسرائيل فشلوا في القضاء على قوة حماس واستعادة جثث جنودهم عندها، وفشلوا في الحصول على تأكيد شعبي في الإقليم والعالم، وجلبوا لأنفسهم الإدانة على قتل الأطفال والنساء وسائر الإبرياء، وتعرضوا لضغوط من كل صوب، لوقف حرب الإبادة، بحكم فوارق لا تقبل المقارنة، بين تكنولوجيا التسليح وقدرات السلاح على جانبي المواجهة؛

قادة إسرائيل فشلوا في القضاء على قوة حماس واستعادة جثث جنودهم عندها، وفشلوا في الحصول على تأكيد شعبي في الإقليم والعالم، وجلبوا لأنفسهم الإدانة على قتل الأطفال والنساء وسائر الإبرياء، وتعرضوا لضغوط من كل صوب، لوقف حرب الإبادة، بحكم فوارق لا تقبل المقارنة، بين تكنولوجيا التسليح وقدرات السلاح على جانبي المواجهة؛

قادة إسرائيل فشلوا في القضاء على قوة حماس واستعادة جثث جنودهم عندها، وفشلوا في الحصول على تأكيد شعبي في الإقليم والعالم، وجلبوا لأنفسهم الإدانة على قتل الأطفال والنساء وسائر الإبرياء، وتعرضوا لضغوط من كل صوب، لوقف حرب الإبادة، بحكم فوارق لا تقبل المقارنة، بين تكنولوجيا التسليح وقدرات السلاح على جانبي المواجهة؛

قادة إسرائيل فشلوا في القضاء على قوة حماس واستعادة جثث جنودهم عندها، وفشلوا في الحصول على تأكيد شعبي في الإقليم والعالم، وجلبوا لأنفسهم الإدانة على قتل الأطفال والنساء وسائر الإبرياء، وتعرضوا لضغوط من كل صوب، لوقف حرب الإبادة، بحكم فوارق لا تقبل المقارنة، بين تكنولوجيا التسليح وقدرات السلاح على جانبي المواجهة؛

قادة إسرائيل فشلوا في القضاء على قوة حماس واستعادة جثث جنودهم عندها، وفشلوا في الحصول على تأكيد شعبي في الإقليم والعالم، وجلبوا لأنفسهم الإدانة على قتل الأطفال والنساء وسائر الإبرياء، وتعرضوا لضغوط من كل صوب، لوقف حرب الإبادة، بحكم فوارق لا تقبل المقارنة، بين تكنولوجيا التسليح وقدرات السلاح على جانبي المواجهة؛

Together
for our future